الفصل الثاني

حاجة الإنسان إلى التدين

الدين متأصل في النفوس

اتفق علماء الأديان وغيرهم على تأصل العقيدة الدينية في النفوس فليس هناك شيء أبعد غورًا وأشد لصوقًا بالنفس، وأعظم تأثيرًا في حياة الشعوب والأفراد من التدين، فهو يمثل العنصر الجوهري في فطرة وطبيعة الإنسان، ولذلك لا يستطيع أن يعيش في الحياة بدونه.

«ففي الطبع الإنساني جوع إلى الاعتقاد كجوع المعدة إلى الطعام، فالروح تجوع، كما يجوع الجسد، وإن طلب الروح لطعامها كطلب الجسد لطعامه، لا يتوقف على جودة الغذاء ولا على حلاوة المذاق بل يتوقف على شعور الغريزة بالحاجة إليه.

حق لا يقبل المراء أن الحاسة الدينية بعيدة الغور في طبيعة الإنسان. وحق لا يقبل المراء أن الإنسان يجب أن يؤمن ولا يستقر في وسط هذه العوالم بغير إيمان.

وهو قد وجد في وسط هذه العوالم لا مراء. فإذا كان الإيمان هو الحالة التي يتطلبها منه وجوده، فضعف الإيمان شذوذ يناقض طبيعة التكوين ويدل على خلل في الكيان» [(١)].

ولذلك يقول أرنولد توينبي: (إن جوهر الدين ثابت ثبات جوهر الطبيعة البشرية ذاتها، فالدين في الحقيقة صفة ذاتية مميزة للطبيعة البشرية) [(٢)].

فالدين مركوز في الطباع، ملازم ومتأصل في النفوس، مترسب في الأعماق منذ الإنسان الأول. والاعتراف بالربوبية في أعماق البشر منذ العهد والميثاق

---

(١) عباس العقاد: الله (كتاب في نشأة العقيدة الإلهية) ص١٤ دار المعارف. الطبعة السابعة سنة ١٩٧٦م.

(٢) أرنولد توينبي: تاريخ البشرية جـ١ ص١٩. ترجمة د. نقولا زيادة. الأهلية للنشر والتوزيع. الطبعة الثالثة، سنة ١٩٨٥م - بيروت.

وما كان للباري -جلت حكمته- أن يخلق الخلق ويوجد البشر ثم يتركهم هملاً بلا عقل، ولا عاطفة ولا دين [١].

وسوف نجلي هذه الحقيقة من خلال المبحثين التاليين:

(١) عمومية التدين وعالميته.

(٢) حتمية التدين وضرورته وأهميته بالنسبة للفرد والجماعة.

* * *

(١) د. محمود بن الشريف: الأديان في القرآن ص١٠ دار المعارف، الطبعة الرابعة. سنة ١٩٨٠م.

المبحث الأول

عمومية التدين وعالميته

أ- دعوى تأخر التدين عن نشأة الإنسان ومناقشتها:

زعم بعض كتاب القرن الثامن عشر الذين مهدوا للثورة الفرنسية أن الديانات ليست إلا نظمًا مستحدثة وأفكارًا طارئة على البشرية.

- فمنهم من نفى وجود الدين لدى الشعوب القديمة مثل (فولتير) الذي قال: (إن الإنسانية لا بد أن تكون قد عاشت قرونًا متطاولة في حياة مادية خالصة، قوامها الحرث، والنحت، والبناء، والحدادة، والنجارة قبل أن تفكر في مسائل الدينيات والروحانيات) [١].

فهو يرى أنه في أبعد حدود الماضي عاشت أجناس بشرية مختلفة، اتخذت لأنفسها وفي بطء وبعد عصور مسرفة في الطول لغة منطوقة وأكواخًا، ووصلوا إلى استخدام المعادن ثم بعد ذلك اتخذوا لأنفسهم ديانات فيها العقائد والشعائر [٢].

ثم فسر إيجاد التدين بخداع القسس أو الكهنة، وبغباء الشعوب الذين وصفهم بالحمق والسذاجة فقال: (إن الملوك القدامى استخدموا في زمانهم هذه الأفكار ليدعموا سلطانهم، وأفردت كل جماعة إحدى القوى الخارقة لتكون إلهًا حارسًا لها، وأضفت عليه حالة من التقديس وعبدته وقدمت له القرابين على أمل أن يتولى حمايتها من سطو الجماعات الأخرى وآلهتها، وأوجدت هذه المعتقدات الكهنة، كما أن التفاسير والتأويلات والطقوس

---

(١) الدين ص٨١.

(٢) جوستاف لانسون: فولتير ص١٨٨ ترجمة د. محمد غنيمي هلال. راجعه د. حسين سعفان (سلسلة الألف كتاب).

كانت من عمل الكهنة، وبمرور الزمن لعب الكهنة على خوف الناس واستغلوه ليبسطوا سلطانهم وقوتهم، واقترفوا كل ضروب الخداع واللؤم) .

وقال: (إن فكرة التأليه إنما اخترعها دهاة ماكرون من الكهنة والقساوسة الذين لقوا من يصدقهم من الحمقى والسخفاء) [١].

- وكذلك أيضًا كان زعم (لوبوك) -فيما بعد- في كتابه (أصل الحضارة) الذي ادعى فيه وجود جماعة إنسانية أولى خالية من كل ديانة بل وينعدم فيها كل اعتقاد ديني [٢].

- ولا تخرج أقوال (لانج) عن هذا المعنى حيث يذكر في كتاب له بعنوان (Queeland) أن مواطني استراليا الأصليين لم تكن عندهم فكرة عن (الألوهية) ولا أي فكرة عن (العبادة) أو عن مثل أعلى أو تضحية أو معبد. وختم أقواله هذه بإنكار وجود الدين عند هؤلاء وإنكار وجود أي شيء له صفة الدين [٣]

وعند تحليل الأقوال ومناقشتها يتبين لنا ما ياتي:

أولًا: أنها ترديد وامتداد لمغالطات السوفسطائيين اليونانيين الذين تناولوا بالجدل المذاهب الفلسفية المعروفة -آنذاك- وعارضوا بعضها ببعض، وتطرق عبثهم إلى المبادئ الخلقية والاجتماعية، فجادلوا في أن هناك حقًّا وباطلاً، وخيرًا وشرًّا، وعدلاً وظلمًا بالذات، وأذاعوا التشكك في الدين فسخروا من شعائره، واختلقوا على آلهته الأقاويل، ومجدوا القوة والغلبة [٤].

---

(١) الدين ص٨٢.

(٢) راجع مبادئ علم الاجتماع الديني ص٢١٤. الاجتماع الديني ص٣١.

(٣) ثقافة أساسية جـ١ ص٢٦٥، راجع أيضًا د. زيدان عبد الباقي: علم الاجتماع الديني ص٧٣ مكتبة غريب.

(٤) يوسف كرم: تاريخ الفلسفة اليونانية ص٤٥. الطبعة السادسة (لجنة التأليف والترجمة والنشر) سنة ١٩٧٦م.

على أن تشككهم في المعتقدات الدينية والعبادات، وفي أشكال النظام السياسي والاجتماعي وفي الأفكار والأعمال الخلقية لم يتضمن نوعًا من الإيمان بوجود طريقة أفضل للحياة ورغبة في العثور عليها، ولكنه تضمن الإنكار لأي مبدأ ثابت. بل ورأوا أن المعتقدات والأعمال المقبولة ليست إلا مخترعات تحكمية للناس [١].

فلقد زعموا أن الإنسان كان في أول نشأته يعيش بغير رادع عن قانون، ولا وازع من خلق، وأنه كان لا يخضع إلا إلى القوة الباطشة... ثم كان أن وضعت القوانين فاختفت المظاهر العلنية من هذه الفوضى البدائية، ولكن الجرائم السرية ما برحت سائدة منتشرة... فهنالك فكر بعض العباقرة في إقناع الجماهير بأن في السماء قوة أزلية أبدية ترى كل شيء، وتسمع كل شيء، وتهيمن بحكمتها على كل شيء [٢].

وقد حفظ رأي أحد السوفسطائيين غير المعروفين في مسرحية كتبها كريتياس [٣] -أحد مثقفي نهاية القرن الخامس قبل الميلاد- ووضع فيها على لسان سيزيفوس [٤] محتقر الآلهة: إن الذي اخترع الآلهة العليمة بكل شيء والتي تصيب البشر بالعقاب إنما هو مشرع قوانين ذكي من عصور التاريخ الأولى، لأنه لم يجد وسيلة غير هذه من أجل التغلب على شرور البشر [٥].

---

(١) مارجريت تايلور: الفلسفة اليونانية ص٧٢ ترجمة عبد المجيد عبد الرحيم. ط. أولى مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٥٨م.

(٢) الدين ص٨٢.

(٣) سياسي وكاتب أثيني (حوالي ٤٥٠-٤٠٣ ق.م) وهو من أقرباء أفلاطون، ويظهر في بعض محاوراته ومنها (بروتاجوراس).

(٤) شخصية أسطورية كانت متعددة المواهب حتى آثار حقد الآلهة عليه -كما تقول الأساطير- فعاقبوه.

(٥) أولف جيجن: المشكلات الكبرى في الفلسفة اليونانية ص٣٣١. ترجمة د. عزت قرني (لم يذكر اسم الناشر).

وهكذا لم تكن القوانين والديانات في تصويرهم إلا ضروبًا من السياسة الماهرة التي تهدف إلى علاج أمراض المجتمع بكل حيلة ووسيلة [١].

لذلك يقول د/ أولف جيجن (ويمكن للمرء أن يرجع إلى عهد السوفسطائيين الحجج التي نجدها عند بعض المؤلفين المتأخرين والمعاصرين الذين ينكرون أو يتشككون في أمر الألوهية) [٢].

ثانيًا: ويبدو أن فولتير من خلال تربيته في مدارس الآباء اليسوعيين قد وقف عن كثب على أساليب بعض الجماعات المسيحية (جماعة الجزويت)، وكان لهذا أثره في مهاجمة الكنيسة الكاثوليكية خاصة والدين بوجه عام.

إذ أنه كان يعتقد أن هذه الجماعات وأمثالها من الهيئات الدينية تقوم بممارسة نواحي تدميرية سرية، وتشترك في المؤامرات والاغتيالات السياسية، كما أنهم يتسترون وراء المظهر الديني، والهدف الثقافي ليسيطروا على عقول النشء ويستغلونهم لتحقيق أغراضهم التي تتنافى مع مفهوم الإنسانية، ولا تتفق مع أصول العقل، وتتنافى أيضًا مع طبيعة وظيفتهم كهيئة دينية.

ولذلك نجده يصنف رجال الدين إلى قسمين:

الخبثاء: وهم الذين يستعملون الدين كوسيلة للسيطرة على العقول الضعيفة.

والسخفاء: وهم الذين يصدقون كل شيء بسرعة دون إعمال الرأي وهم بذلك يصبحون متعصبين.

ويبدو أن وقوفه على مثل تلك الممارسات الخطيرة والأحداث الجسيمة التي ألصقت بعصابات القساوسة قد كان من أهم العوامل المحفزة على

---

(١) الدين ص٨٢.

(٢) المشكلات الكبرى في الفلسفة اليونانية ص٣٣١، ٣٣٢. راجع أيضًا: برتراند رسل: تاريخ الفلسفة الغربية (الكتاب الأول) ص١٣٣ الطبعة الثالثة سنة ١٩٧٨م.

الشك في رجال الدين ونقمته على المذهب الكاثوليكي وكنيسته والدين [١].

ولذلك يمكن إرجاع الباعث على ترويج هذه الأفكار والتشكيك في وجود التدين لدى الشعوب القديمة، والادعاء بأنه من اختراع الكهنة والقساوسة - وانتشارها في أوروبا الحديثة إلى سببين:

أحدهما: الانحلال الخلقي عند نفر من رجال الكنيسة.

ثانيهما: ظلم القوانين الوضعية وسوء توزيع الثروة العامة وسيطرة الكنيسة على مقاليد الأمور في البلاد [٢].

يقول جوستاف لانسون (وكان رجال القضاء والكنيسة يشتغلون بامتيازاتهم أكثر من شغلهم بالخير العام، مع الاضطراب في جمع الأموال العامة، وسوء نظام الضرائب الظالم، وضخامة دخل كبار رجال الدين الذي كان مجلبة عار، إلى بؤس صغار رجال الكنيسة في القرى، واضطراب القوانين، وتداخل اختصاصات السلطات وتصارعها.

وكانت الامتيازات الكثيرة والنظم تتحول إلى بؤس وإعنات لسواد الشعب)[٣] ولذلك كان من السهل أن يظن الناس أن الدين والقانون كانا كذلك في كل زمان ومكان [٤].

ثالثًا: إن المنكرين لملازمة الدين لخلق الإنسان ونشأته والمنكرين لعموميته القائلين بتأخره عن الإنسان في الوجود يناقضون أنفسهم.

فمثلاً نجد أقوال (لانج) لا تستقر على قرار متين.

فبينما يذكر أن أهالي أستراليا الأصليين لم تكن لديهم فكرة عن التدين،

---

(١) راجع الاجتماع الديني ص١١٣، د/ محسن العابد. مدخل في تاريخ الأديان ص١ الناشر دار الكتاب سوسة ١٩٧٣ تونس.

(٢) الدين ص٨٢.

(٣) فولتير ص٢١٠.

(٤) الدين ص٨٣.

نجده يذكر في نفس الكتاب أن هؤلاء الأستراليين ينسبون مرض الجدري إلى روح شرير يسمى **Budyah** يسره حدوث الضرر ووقوع الأذى بالنسبة للبشر.

وكذلك فإنه يذكر أن الأهالي يتركون جزءًا من العسل عند قطفه لروح يسمى **Buddi**.

هذا وقد كذَّب المنصر (ريدلي) -الذي عاشر أهل استراليا الأصليين- أقوال (لانج) إذ لاحظ من خلال معاشرته ومخالطته لأهل هذه البلاد أنهم يعتقدون في قوى فوق الطبيعة. حتى أنهم عندما يسمعون صوت الرعد يزعمون أنهم يسمعون صوت الإله (بيام) ويطلقون اسم (ترومبولم) على الإله الأكبر الذي يخلق المرض والضرر -كما يعتقدون- كما يخلق العقل الذي يظهر في صورة ثعابين كبيرة الحجم [١].

- وهناك أيضًا آخرون مثل (لانج) ممن ناقضوا أنفسهم في هذا المجال فمثلاً نجد (دون فليكس ديزرا) يذكر في أحد مؤلفاته أن البدائيين في أمريكا الجنوبية ليست لهم ديانة على الإطلاق، علمًا بأنه يذكر في نفس الكتاب أن قبائل (البياجية) تعتقد في حياة بعد هذه الحياة، كما تعتقد قبائل (اليونا) في إله يثيب ويعاقب على الخير والشر.

- وأمام الجمعية الإثنولوجية [٢] في لندن قرأ السير صمويل بيكر سنة ١٨٦٦م تقريرًا جاء فيه:

«إن أهم القبائل الشمالية للنيل الأبيض هي: الدنكار والشيلوك، والنوير،

---

(١) ثقافة أساسية جـ١ ص٢٦٥، ٢٦٦ راجع أيضًا: د. زيدان عبد الباقي، علم الاجتماع الديني ص٧٣، ٧٤.

(٢) الإثنولوجيا هو علم الأجناس وهو يهتم بدراسة خصائص الأجناس دراسة تسمح بتصنيفها والتفرقة بينها (راجع المعجم الفلسفي ص٣).

والشير[١]... إلى آخره. وهي في جملتها لا دين لها، فهم بلا استثناء لا إيمان لهم في كائن أسمى، وليس لهم أي نوع من العبادة، وليس لظلام عقولهم نافذة يرون منها الواقع».

بيد أن (تايلور) فند أقوال (صمويل بيكر) مبينًا أن أقواله كانت تجد لها قبولاً لو أنه كان يتحدث عن قبائل غير هذه القبائل، ولكن كيف لنا أن نقبل كلامه وهو يتحدث عن قبائل لا نعلم دينها فحسب بل وجميع عاداتها؟!.

ألم يسمع (بيكر) عن:

أولًا: تضحيات قبائل (الدنكا) واعتقادهم في:

- الأرواح الخيرة (جيوك).
- الأرواح الشريرة (أجوك).
- والإله الخير الخالق -في نظرهم- (دنديد).

ثانيًا: اعتقاد قبائل النوير في الإله (نير).

ثالثًا: اعتقاد قبائل (الشلوك) في إله يوصف بأنه مثل الأرواح الأخرى في الأثر ولكنه يتجسد في صور مختلفة مثل الغابة أو الشجرة المقدسة [٢].

ويؤكد (جاك مندلسون) على وجود العقيدة الدينية وقدمها عند هذه القبائل الإفريقية وغيرها ليرد على مثل ادعاءات (بيكر) فيقول: (وبالاختصار فإنه لا مجال للشك في أن الإيمان بإله أعلى أو قادر منتشر باتساع في إفريقيا).

وكان من المعتاد أن يقال إن وجود مثل هذه الآراء لا بد أنها وليدة المنصرين المسيحيين أو المجاهدين المسلمين. ولكنه من المعروف جدًّا الآن

(١) عن مجموعة هذه القبائل الإفريقية وخاصة قبائل النوير راجع د. يسري الجوهري: دراسات في جغرافية الإنسان (الجماعات البدائية) ص١٧٧ وما بعدها. الطبعة الأولى. الهيئة العامة للكتاب سنة ١٩٧٩م.

(٢) ثقافة أساسية جـ١ ص٢٦٦.

أن فكرة وجود كائن أعلى لم ترد من الخارج إنها جزء من الحياة الإفريقية القديمة. حتى إن المنصرين قد وجدوا أن الرب اليهودي المسيحي شيء مألوف لدى الإفريقيين العاديين. وكلما أكثر الشخص التخاطب مع الإفريقيين، شبابًا، وكهولاً، ازداد اقتناعًا بوجود علاقة منذ القدم بين الناس والله الرب الخالق) [١].

ويعتقد تايلور: (أن «بيكر» هو من أمثال هؤلاء الكتاب الذين يعتقدون أن كل دين غير دينهم ليس بدين، وهم في هذا يشبهون الهنود الذين قالوا عن بعض القبائل الهندية البدائية أنها غير مؤمنة بالآلهة أو ليسوا مؤلهين لأنهم ليسوا مثلهم في إيمانهم بالإله).

وقد يكون الحكم على بعض الجماعات بأنها لا تعرف الدين نتيجة لمحاولة بعض القبائل البدائية لإخفاء حقيقة أمورهم الخاصة عن الأجانب. فهم لا يريدون أن يغضبوا آلهتهم إن هم جعلوا هؤلاء الأجانب يطلعون على عاداتهم وتقاليدهم وثقافاتهم واعتقاداتهم.

ويذكر لنا «سبروت» أن قبائل (أتس) قد أنكرت دينها عندما قام بزيارتها ولكنه تمكن مع ذلك بوسائله الخاصة أن يتأكد من أن للقوم أفكارًا عن النفس وعن الروح تسبب للناس الخير والشر، وكذلك يؤمنون بآلهة لها عندهم مراتب خاصة [٢].

هذه الأبحاث كلها تدلنا على أن الدين وجد عند جميع المجتمعات منذ فجر البشرية وأن الغربيين الذين أنكروا معرفة بعض الشعوب بالدين مخطئون. فإنكارهم لا يستند إلى وثائق تاريخية)، ولا يعتمد على أسس عملية. وإنما

---

(١) جاك مندلسون: الرب والله وجوجو (الأديان في إفريقيا المعارضة) ص٤٥. ترجمة إبراهيم أسعد محمد. ط دار المعارف سنة ١٩٧١م.

(٢) راجع ثقافة أساسية جـ١ ص٢٦٦، ٢٦٧، د. زيدان عبد الباقي: علم الاجتماع الديني ص٧٤، ٧٥.

يقوم على افتراضات وتخمينات. وربما يكون هذا الإنكار قائمًا على عدم معرفة المنكر أو اضطراب فكره.

وعلى ذلك «**فليس هناك دليل واحد على أن فكرة التدين في جوهرها قد تأخرت عن نشأة الإنسان**» [١].

رابعًا: إن أقوال المنكرين لعمومية الدين قد انهارت أمام الاكتشافات العلمية الحديثة وظهر خطؤها إذ أثبت الرحالة الأوربيون من خلال اكتشافاتهم وأبحاثهم عن العقائد والأساطير القديمة أن فكرة التدين فكرة عالمية [٢] لم يخل منها شعب من الشعوب، ولم تخل منها جماعة من الجماعات الإنسانية ولا أمة من الأمم في القديم والحديث.

وكلما أوغل الباحثون في البحث عن التاريخ الإنساني القديم يجدون وضوح الفكرة الدينية لدى جميع الشعوب.

وليس هذا بجديد على العلم، فعلم الآثار دائمًا ما يظهر ويكتشف -من بين الأطلال التي يكشف عنها- بقايا آثار خصصها الإنسان القديم لشعائره الدينية أيًّا كانت تلك الشعائر. ويؤكد من خلالها على سيطرة الفكرة الدينية على عقول وقلوب الناس جميعًا مما يجعلهم يشيدون الكهوف والمعابد التي تقام فيها الشعائر والطقوس والعبادات الخاصة بهم.

(١) الدين ص٨٤.

(٢) يذكر د. محمد عبد الله دراز: أن عموم الأديان لجميع الأمم لا يعني عمومها لكل أفرادها فإنه لا تخلو أمة من وجود ذاهلين قد غمرتهم تكاليف الحياة وأعباؤها، إلى حد أنهم لا يجدون من هدوء البال وفراغ الوقت ما يمكنهم من رفع رءوسهم للنظر في تلك الحقائق العليا، كما لا تخلو أمة من ((منكرين ساخرين)) يحسبون الحياة لهوًا ولعبًا، ويتخذون الدين وهمًا وخرافة، لكن هؤلاء دائمًا هم الأقلون في كل أمة، وهم في الغالب -كما يرى د. دراز- من المترفين الذين لم يصادفهم من عبر الحياة وأزماتها ما يشعر نفوسهم معنى الخضوع والتواضع، وما ينبه عقولهم إلى التفكير في بدايتهم ونهايتهم وهذا الاستثناء من القاعدة لا ينفي أصالة الغريزة الدينية بصفة عامة في طبيعة النفس الإنسانية. كما أن غريزة بقاء النوع لا يمنع من عمومها أن بعض الناس لا يتزوجون ولا ينسلون (المرجع السابق ص٨٣).

ويذكر الأستاذ (مالك بن نبي) أن كهوف العبادة تسير جنبًا إلى جنب مع الفكرة الدينية التي طبعت قوانين الإنسان.

هذا إلى جانب أن عوائد الشعوب وتقاليدها تتشكل بصورة يمليها اهتمام ميتافيزيقي يدفعهم إلى تشييد الأكواخ والكهوف لتتجه نحوه الحياة الروحية. وهي حياة تتفاوت بين الشعوب إلى حد كبير (١).

يقول المؤرخ الإغريقي بلوتارك (من الممكن أن نجد مدنًا بلا أسوار، ولا ملوك، ولا ثروة، ولا آداب، ولا مسارح، ولكن لم ير إنسان قط مدينة بلا معبد، ولا يمارس أهلها عبادة) (٢).

هذا وقد أدت بحوث علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا وغيرهم إلى الاعتراف بعمومية التدين في جميع المجتمعات بلا استثناء وفي جميع العصور.

وسوف نورد أقوال وتقارير بعض الباحثين التي تدل على ذلك وتؤكده.

يقول د. سليم حسن: **«دلت البحوث العلمية البحتة حتى الآن على أن لكل قوم من أقوام العالم عامة -مهما كانت ثقافتهم منحطة- دينًا يسيرون على هديه، ويخضعون لتعاليمه، ولما كانت السلالات البشرية تضرب بأعراقها إلى عهود قديمة قبل التاريخ، فإنه يكاد يكون من المستحيل على الباحث المدقق في أصول الديانات أن يتتبع الخطوات الأولى التي نهجها دين ما من الأديان القديمة المعروفة لنا من البداية حتى النهاية»** (٣).

---

(١) مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية ص٦٨ ترجمة د. عبد الصبور شاهين إصدار ندوة مالك بن نبي، دار الفكر سنة ١٩٨١ دمشق.

(٢) راجع محمود الشرقاوي: الدين والضمير (المقدمة) مكتبة الأنجلو المصرية ط أولى سنة ١٩٥٨، أنور الجندي: الموسوعة الإسلامية العربية (أخطاء المنهج الغربي الوافد في العقائد والتاريخ والحضارة واللغة والأدب والاجتماع) المجلد السادس ص٥ دار الكتاب اللبناني ط أولى سنة ١٩٧٤م.

(٣) الأديان في القرآن ص١١.

ويقول معجم (لاروس) للقرن العشرين (إن الغريزة الدينية مشتركة بين كل الأجناس البشرية حتى أشدها همجية، وأقربها إلى الحياة الحيوانية... وإن الاهتمام بالمعنى الإلهي وبما فوق الطبيعة هو إحدى النزعات العالمية الخالدة للإنسانية، ويقول: إن هذه الغريزة الدينية لا تختفي بل لا تضعف ولا تذبل إلا في فترات الإسراف في الحضارة وعند عدد قليل جدًّا من الأفراد) [١].

ويقول برجسون: (قد نرى في السابق أو في الحاضر مجتمعات إنسانية لا حظ لها من علم أو فن أو فلسفة، ولكنا لا نعرف قط مجتمعًا لا دين له) [٢].

ويقول بارتيلمي سانت هيلير: (هذا اللغز -أو التساؤل-) العظيم الذي يستحث عقولنا: ما العالم؟ ما الإنسان؟ من أين جاء؟ من صنعهما؟ من يدبرهما؟ ما هدفهما؟ كيف بدءا؟ كيف ينتهيان؟ ما الحياة؟ ما الموت؟ ما القانون الذي يجب أن يقود عقولنا في أثناء عبورنا في هذه الدنيا؟ أي مستقبل ينتظرنا بعد هذه الحياة؟ هل يوجد شيء بعد هذه الحياة العابرة؟ وما علاقتنا بهذا الخلود...؟ هذه الأسئلة لا توجد أمة، ولا شعب، ولا مجتمع، إلا وضع لها حلولاً جيدة أو رديئة، مقبولة أو سخيفة، ثابتة أو متحولة...» [٣].

وهكذا أكد العلماء المختصون بالإنسان على أن الدين لازم الإنسانية منذ نشأتها وأنه لم يوجد مجتمع من المجتمعات الإنسانية إلا وقام على أساس ديني.

كما أثبت البحث العلمي وجود التدين لدى جميع المجتمعات القديمة. فليس هناك ما يبرر أو يثبت أن فكرة الدين تأخرت في دورها عن نشأة

---

(١) الدين ص٨٤.

(٢) منبعا الأخلاق والدين ص١٢٣.

(٣) الدين ص٨٤، ويذكر د. محمد أحمد بيومي أنه لم يكتشف بعد أي جماعة إنسانية دون أن يكون لها سلوك يعرف بأنه سلوك ديني. ولا شك أن مظاهر السلوك الديني قد تكون متداخلة مع الجوانب الأخرى والهامة للسلوك الإنساني، وأنه من الصعب التمييز بين ما هو ديني فيها من غيره (راجع علم الاجتماع الديني).

المجتمعات الإنسانية الأولى.

ب- ثبات فكرة التدين وعدم زوالها:

كما أنه لا يمكن أن توجد أمة بلا دين فإنه لا يمكن أيضًا أن يزول الدين قبل زوال الإنسان. فالدين مستقر في النفوس، ملازم للإنسان في جميع الأماكن ومن أقدم الأزمان، ولن يزول قبل أن تزول الحياة.

وقد ادعى البعض أن الدين مرحلة من مراحل الأمم والشعوب التي تم تخطيها وتجاوزها وذلك بسبب التقدم العلمي القائم على التفكير العقلي، **«وأن الأديان وإن كانت عريقة في التقدم، لكن تقدمها الزماني لا يكسبها صفة الثبات والخلود بل هو بالعكس يطبعها بطابع الشيخوخة والهرم وينذر بأن مصيرها إلى الاضمحلال والفناء»** [(١)].

هذه هي نظرية أوجيست كونت. فقد ذهب إلى أن العقلية الإنسانية قد مرت بثلاث مراحل تصاعدية من مرحلة الخضوع للدين وهي الدور اللاهوتي. إلى مرحلة الخضوع للميتافيزيقا، إلى المرحلة العلمية أو الوضعية، وفي هذه المرحلة الأخيرة يستكمل العقل استبعاده ورفضه لكل المقررات والأصول الدينية والميتافيزيقية وآثارها [(٢)].

وها هي ذي الطريقة التي اتبعها (كونت) في تحديد صيغة القانون في رسالته المسماة (خطة البحوث العلمية الضرورية لإعادة تنظيم المجتمع). (بناء على طبيعة العقل الإنساني نفسها لا بد لكل فرع من فروع معلوماتنا من المرور في تطوره بثلاث حالات [(٣)] نظرية مختلفة متتابعة: الحالة اللاهوتية أو

---

(١) الدين ص٨٥.

(٢) راجع د. عبد القادر محمود: الفكر الإسلامي والفلسفات المعارضة في القديم والحديث ص١٩٧، ١٩٨. الطبعة الثانية. الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٦م.

(٣) وقد أشار (كونت) إلى هذه الحالات في مواضع كثيرة من كتابه (دروس الفلسفة الوضعية) وأسماها حالات، وأطلق عليها في مواضع أخرى أنساق، أو مناهج، ويسميها في أغلب...=

الخرافية، والحالة الميتافيزيقية أو المجردة، وأخيرًا الحالة العلمية أو الوضعية. وتتنافى هذه الحالات الثلاث بعضها مع بعض. الأولى نقطة بدء ضرورية. أما الثالثة فهي الحالة النهائية الثابتة أما الثانية فقد قدر لها أن تستخدم فقط كمرحلة انتقال) [١].

ويعتقد أوجيست كونت أن هذه المراحل الثلاث تمثل قانونًا عامًا ينطبق على الإنسانية بأسرها [٢].

ثم يشرح أدواره أو أطواره بأن العقل كان يبحث في المرحلة الأولى في كنه الموجودات وأصلها ومصيرها، وعللها وغاياتها، وكانت تفسيرات العقل للموضوعات فائقة على الطبيعة وكان منهجه في ذلك قائمًا على الخيال فالظواهر تحدث بفعل كائنات سامية تختفي وراء الطبيعة المرئية حيث أثرت المعاني اللاهوتية تأثيرًا ملحوظًا في الحياة الخلقية والاجتماعية، وبدا هذا الدور حين استقرت الكثلكة وسادت سلطة الكهنة والملوك.

وفي الدور الميتافيزيقي يظل العقل يبحث كنه الأشياء وأصلها ومصيرها، ولكنه يرتقي فيتخلى عن الكائنات السامية غير المرئية، ويرد الظواهر إلى علل مجردة خفية يتوهمها في باطن الأشياء.

وفي الدور الثالث والأخير يتجنب العقل الطريقتين السالفتين في البحث منهجًا وموضوعًا، ويعدل عن البحث في أصل الكون، ومصيره، وعلله الخفية، ويهتم بمعرفة الظواهر وكشف قوانينها لا يسأل لماذا حدث هذا؟ أو ما علته؟

=الأحيان فلسفات (راجع د. قباري محمد إسماعيل: علم الاجتماع والفلسفة ص٦١. الطبعة الأولى. الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر سنة ١٩٧١م).

(١) راجع ليفي بريل: فلسفة أوجيست كونت ص٥١. ترجمة د. محمود قاسم، د. السيد محمد بدوي، الطبعة الثانية. مكتبة الأنجلو المصرية.

(٢) د. محمد على محمد: تاريخ علم الاجتماع (الرواد والاتجاهات المعاصرة) ص٨٦. راجع أيضًا إميل بوترو: العلم والدين في الفلسفة المعاصرة ص٤٤ ترجمة د. أحمد فؤاد الأهواني.

أو ما غايته؟ ولكن يسأل: كيف حدث؟ وعلى أساس من الواقع المشاهد [١].

وبهذا رفض المذهب الوضعي المذاهب الميتافيزيقية والفلسفية واعتبر أن التفكير الديني يمثل الحالة البدائية التي تلهث بها الإنسانية في المرحلة الأولى حتى إذا جاء دور العلوم التجريبية والفلسفية الوضعية فإنها ستقضي على التفكير اللاهوتي والميتافيزيقي.

يقول كونت (وحتى الآن كانت المذاهب اللاهوتية والميتافيزيقية هي الأفكار العامة الوحيدة التي كونها العقل الإنساني لنفسه عن الكون. وقد أدت هذه المذاهب وظيفة ضرورية، بل ما كان من المستطاع أن يولد العلم الوضعي أو ينمو دونها، لكن كما أن هذا العلم وارثها فهو عدوها أيضًا. ولم يكن بد من أن يفضي تقدمه إلى انهيارها) [٢].

وقد وجه الباحثون إلى هذا المذهب جملة من النقود نذكر بعضها فيما يلي:

أولًا: نقطة الخطأ البارزة في هذا المذهب أن أنصاره جعلوا منه قانونًا يستوعب التاريخ كله في شرط واحد قطعت الإنسانية ثلثيه بالفعل، ونفضت أو كادت تنفض يدها منهما إلى غير رجعة.

وهذه دعوى لا دليل عليها. هذا إلى جانب أنها تحرف التاريخ وتصادم العيان وتناقض الواقع فنحن ما زلنا نسمع ونرى في كل عصر تقديسًا للروحانيات وشغفًا بالمعنويات والمعقولات الكلية.

وها نحن أولاء في القرن العشرين -وفي قلب الحضارة الأوربية- نرى إلى جانب البحوث المادية المتشعبة دراسات روحية واسعة تقوم بها جماعات من

---

(١) راجع يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الحديثة ص٣١٧، ٣١٨. الطبعة السادسة دار المعارف سنة ١٩٧٩م، د. توفيق الطويل: أسس الفلسفة ص٢٦٨، ٢٦٩. الطبعة الخامسة. دار النهضة العربية سنة ١٩٦٧م، د. عبد القادر محمود: الفكر الإسلامي والفلسفات المعارضة في القديم والحديث ص١٩٨.

(٢) فلسفة أوجيست كونت ص٤٦.

كبار علماء الطب والفلسفة والطبيعة (مثل وليم جيمس) [١].

هذا إلى جانب أننا ما زلنا نسمع أن الشعوب الأوربية أو بعضها تعتمد على قراءة البخت، والعرافين، والعرافات، وكيف استشرى هذا الأمر بينهم حتى صارت العرافات من أعلام المجتمع، وحتى صار لكل من رجال السياسة والاقتصاد مستشارون خاصون في قراءة الطالع [٢].

فكيف لنا إذن أن نفسر هذا؟ كيف لنا أن نفسر تلك العقلية الغربية التي تتشبث بنبوءات التنجيم تشبثًا أشد من تشبث القرون الوسطى، وذلك حيث ينتشر التنجيم الآن في العالم الغربي بصورة لم يعهدها الشرق من حيث التعمق والتبويب والاستقصاء [٣].

على أنه لا يمكن التسليم بفكرة هذا القانون من واقع الفكر المعاصر (كونت) حيث أقر بوجود التعاصر بين هذه الحالات الثلاث في الفكر السائد حينذاك [٤].

يقول ليفي بريل -الذي يعد من أكبر المناصرين لفكر كونت- وهو يعرض فلسفة (كونت) (غير أننا لم نصل بعد إلى هذه المرحلة -المرحلة الوضعية- بل على العكس من ذلك ما زالت ضروب التفكير الثلاثة: اللاهوتي، والميتافيزيقي، والوضعي، توجد في أيامنا هذه جنبًا إلى جنب حتى لدى أكثر العقول ثقافة) [٥].

ثانيًا: إن استقراء تاريخ الفكر يشهد بخطأ هذا القانون، فالتجربة تشهد بأن الأدوار الثلاثة قد توجد في الفرد الواحد، والجماعة الواحدة، مقترنة بعضها

(١) الدين ص٨٦.

(٢) انظر في هذا مقال الأستاذ عباس العقاد (بمجلة أخبار اليوم ١٩٥٦/١/٢١م، وجريدة الجمهورية بعددها الصادر في ١٨ نوفمبر ١٩٧٧م) نقلاً عن د. يحيى هاشم: الإسلام والاتجاهات العلمية المعاصرة ص١٢. ط دار المعارف سنة ١٩٨٤م.

(٣) المرجع السابق ص١١.

(٤) المرجع السابق نفس الصفحة.

(٥) فلسفة أوجيست كونت ص٦٤.

ببعض، فقد يقبل الفرد أو الجماعة تفسيرات لاهوتية أو ميتافيزيقية في بعض المشاكل التي تواجهه مع اعتقاده بالعلم الوضعي. والملحوظ أن الدور الأول الذي يقولون إنه يتمثل في عصر ما قبل التاريخ وبدء العصر التاريخي قد اخترعت فيه صناعات عن طريق المشاهدة ومعرفة طبائع الأشياء.

وفي الدور الفلسفي الذي يقال إنه شمل العصور القديمة قد وجدت فيه مشاهدات فلكية، ومدنيات شرقية، وعرفت هندسة إقليدس، وطب أبقراط، وطبيعيات أرسطو، وكيمياء العرب، وطبهم.

وفي الدور الوضعي الذي يقال إنه يتجلى في العصور الحديثة وجد كثرة من دعاة الأخلاق والدين والتأمل الميتافيزيقي [١].

وقد أقر (كونت) نفسه في تصنيف للعلوم بأن الرياضيات في أول أمرها كانت واقعية وهذا يتنافى مع القول بأن المعرفة تبدأ لاهوتية أولاً ثم تنتهي واقعية [٢].

وحسبنا أن نذكر أيضًا أن العلم المصري القديم قام على أساس لاهوتي ثابت قائم وهو ما نشاهده في علوم الهندسة التي بنت الأهرام والمقابر، وعلوم الطب التي حنطت الجثث لتخلد إلى الأبد وحتى يمكن أن تتعرف عليها أرواحها -كما كانوا يعتقدون- عند البعث... وهذا وحده (وقد حدث في فجر الإنسانية) يهدم تركيبة (كونت) الوضعية. وهذا معناه أن مرحلة التفكير الفلسفي ليست سابقة بالضرورة على مرحلة التفكير العلمي [٣].

بل ونذكر أيضًا أن (كبلر) و (ديكارت) قد أسسا رأيهما في انتظام قوانين

---

(١) أسس الفلسفة ص٢٨٥، ٢٨٦ راجع أيضًا د. زيدان عبد الباقي: علم الاجتماع الديني ص٢٨.

(٢) راجع فلسفة أوجيست كونت ص١٣٨، تاريخ الفلسفة الحديثة ص٣٢٩، د. محمود عتمان: الفكر المادي الحديث وموقف الإسلام منه ص١١٠ مكتبة الأنجلو المصرية. الطبعة الأولى سنة ١٩٧٧م.

(٣) الفكر الإسلامي والفلسفات المعاصرة ص١٩٨.

الطبيعة على القول بكمال الله.. وفي رأي (نيوتن) أن نظام المجموعة الشمسية راجع إلى القدرة الإلهية. ولا تزال بعض المجتمعات تفسر الحقائق العلمية تفسيرًا دينيًا، وبعضها يفسرها تفسيرًا ميتافيزيقيًا [١].

ولذلك يقول نيقولا تيماشيف: (إن أيًا من الاتجاهات المتأخرة لم يحل كلية محل الاتجاه الديني في التفسير، بل إن هناك أكثر من ذلك خلطًا بين المراحل الثلاث وحتى مع التصحيح والتعديل) [٢].

فلا معنى إذن أن نقول بفكرة المراحل أو الفواصل التي تفصل بين جوانب الفكر الإنساني برمته رغم اتصالها الأكيد [٣].

فتاريخ الفكر الإنساني يشهد بذلك حيث يعطي الكثير من الأمثلة على الامتزاج بين هذه المراحل.

ويذكر د/ محمد عبد الله دراز أن الحالات الثلاث التي يصورها كونت لا تمثل أدوارًا تاريخية متعاقبة بل تصور نزعات وتيارات متعاصرة في كل الشعوب، وليست كلها دائمًا على درجة واحدة من الازدهار أو الخمول في شعب ما، ولكنها تتقلب بها الأقدار بين بؤس ونعمة، ونحس وسعد.

ويمكن القول إن هذه النزعات الثلاث متعاصرة ومتجاورة في نفس كل فرد وأن لها وظائف يكمل بعضها بعضًا في إقامة الحياة الإنسانية على وجهها، ولكل واحدة منها مجال يوائمها. ويقول (بل نذهب إلى أبعد من ذلك -إذا كان ولا بد من بيان نشأة هذه الأدوار الثلاثة- فنقرر أن النظرة

---

(١) د/ مصطفى الخشاب: علم الاجتماع ومدارسه (الكتاب الأول) وموضوعه (تاريخ التفكير الاجتماعي وتطوره) ص٢٥٩ مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٧٥م.

(٢) نيقولا تيماشيف: نظرية علم الاجتماع (طبيعتها وتطورها) ص٢٧، ترجمة د/ محمود عودة، د/ محمد الجوهري. وغيرهما. الطبعة الثانية. دار المعارف سنة ١٩٧٢م.

(٣) د/ قباري محمد إسماعيل: علم الاجتماع والفلسفة ص١٥٣ الطبعة الأولى. الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧١م.

الواقعية تقع في مبدأ الطريق لا في نهايته، وأنها تمثل مرحلة الطفولة النفسية لا مرحلة النضج والكمال، ذلك أن مبعثها الحاجة العاجلة وضرورة الحياة اليومية، وبأنها وظيفة الحس لا العقل. أما نظرة التعليل بالمعاني العامة فإنها تنبثق في النفس على أثر ذلك متى استيقظت ملكتا التجريد والتعميم في التصورات والأحكام.

أما النظرة الروحية والدينية فواضح أنها لا تولد في النفس إلا حينما يتسع أفقها فتجاوز الكون بظاهره وباطنه إلى ما وراءه.

وهكذا ينقلب الترتيب الذي تخيله (كونت) رأسًا على عقب [١].

ثالثًا: إن مذهب (كونت) لا يمكن اعتباره نظرية علمية لأنه يفتقد الدليل العلمي ويعتمد على الظن والتخمين. **«إنه لا يتجاوز أن يكون فرضًا من الفروض الفلسفية حيث لا يوجد دليل محسوس يكفي لأن يجعله قانونًا يمكن التنبؤ على أساسه بمستقبل الفكر الإنساني)** [٢].

ولذلك يعلق (فندلبند) على فلسفة كونت بقوله: (إن تاريخ الفلسفة الذي سار به (كونت) كثير التعقيد.. هو جذاب في بعض نقطه، ولكنه في الأكثر يقوم على الهوى، وعدم المعرفة، والحكم المغرض!!) [٣].

رابعا: إن هناك دلائل واضحة تؤكد على أن (كونت) نفسه لم يستطع أن يتخلص مما حذر منه، إنه أراد أن يبعد اللاهوت والميتافيزيقا عن توجيه الإنسان فلم يستطع أن ينجو منهما، بل سقط في الدين والميتافيزيقا إلى أكبر حد فدعى إلى ما أسماه بـ (الديانة الإنسانية)، وأحل فيها الإنسانية -وسماها

---

(١) الدين ص٨٧، ٨٨.

(٢) د/ محمود عتمان: الفكر المادي الحديث وموقف الإسلام منه ص١١٠ مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٧٧م.

(٣) فندلبند: تاريخ الفلسفة ص٥٥٢ نقلاً عن د/ محمد البهي: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ص٢٠١ الطبعة الثامنة. مكتبة وهبة سنة ١٩٧٥م.

الموجود الأعظم- محل الإله في العبادة، وجعل لها عبادة، وأقام عليها كهنة يدبرون أمرها، وأعطى تصورًا ساذجًا للكون، وجعله ثالوثًا مكونًا من (الفيتش الأعظم) و (الوسط الأعظم) و (الموجود الأعظم) ويعني بذلك على التوالي الأرض- والسماء أو الهواء- والإنسانية [١].

أليس هذا كله سقوطًا فيما فر منه؟! فقد أراد أن يفر من الميتافيزيقا والدين إلى الواقعية ويطبقها على كل شيء حتى الدين. ولكنه فشل ولم يستطع وتناقض مع نفسه [٢].

(فكونت) نفسه -كما يقول فندلبند- سقط في المرحلة الأخيرة من مراحل تفكيره في المجال اللاهوتي مرة ثانية.. أي أنه عاد إلى الدين مرة أخرى بعدما تركه وبعدما ترك الميتافيزيقا إذ أنه جعل «الإنسانية» كإله أكبر موضوعًا للتقديس الديني حول فيه كل جهاز للخدمة المقدسة في صورة واقعية [٣].

وقد علق «نيقولا تيماشيف» على هذا التناقض بقوله: قامت الأدلة والبراهين على خطأ كثير من قضايا (كونت) وتخميناته، كما أنه كان ميتافيزيقيًا مفلسًا، لأنه اعتقد -فقط- أنه قضى على إمكان قيام ميتافيزيقا. كذلك كان مفكرًا دينيًا مفلسًا. مع أنه اعتقد اعتقادًا جازمًا بأن الدين واحد من دعامات المجتمع، ويمكن أن تعد نظريته قفزة غير ناضجة [٤].

وهكذا يتبين أن ادعاء (كونت) أن الدين مرحلة من المراحل التي تم تجاوزها قد ثبت عدم صحته علميًا وتطبيقيًا.

---

(١) راجع إميل بوترو: العلم والدين في الفلسفة المعاصرة ص٥٣ ترجمة د/ أحمد الأهواني.
(٢) الفكر المادي الحديث وموقف الإسلام منه ص١٠٦، ١٠٧، راجع تاريخ الفلسفة الحديثة ص٣٢٧، ٣٢٨، فلسفة أوجيست كونت ص٣٤٧.
(٣) الفكر الإسلامي الحديث ص٣٠٢.
(٤) نظرية علم الاجتماع ص٤٢.

خامسا: أكد العلماء والباحثون على بقاء التدين ما بقي الإنسان فهو عنصر أصيل فيه لا يمكن انتزاعه منه ولا يتصور زواله بوجه لأنه مرمى كل عواطف النفس وغايتها [١].

يقول د/ محمد عبد الله دراز: (لا نرى أمارة واحدة تشير إلى أن فكرة التدين ستزول عن الأرض قبل أن يزول الإنسان) [٢].

ويقول الأستاذ أنور الجندي (والواقع أن النظرة العلمية الأصيلة القائمة على استظهار عوامل الاجتماع التاريخي والخالصة من الهوى والعصبية والصادرة عن الفهم العميق للأمور تكشف عن أن الدين ليس مرحلة من حياة الأمم، ولا حياة البشرية، لأنه بدأ بها وسينتهي بها فهو عنصر أصيل وكيان عضوي لم يتخلف عن تركيب الإنسان: عقله وروحه وحياته ولا سبيل إلى انتزاعه منه)[٣].

ويقول سالمون ريناك: (ليس أمام الديانات مستقبل غير محدود فحسب بل لنا أن نكون على يقين من أنه سيبقى شيء منها أبدًا، ذلك لأنه سيبقى في الكون دائمًا أسرار ومجاهيل. ولأن العلم لن يحقق أبدًا مهمته على وجه الكمال.

ويقول الدكتور ماكس نوردوه -عن الشعور الديني- (هذا الإحساس أصيل يجده الإنسان غير المتمدين، كما يجده أعلى الناس تفكيرًا، وأعظمهم حدسًا، وستبقى الديانات ما بقيت الإنسانية) [٤].

---

(١) محمد فريد وجدي: الإسلام في عصر العلم. (الجزء الأول). ص٢٥٢ الطبعة الثانية المكتبة التجارية الكبرى سنة ١٩٣٢م.

(٢) الدين ص٨٩.

(٣) الموسوعة الإسلامية العربية (الكتاب السادس) وموضوعه: (أخطاء المنهج الغربي الوافد في العقائد والتاريخ) ص٥٦.

(٤) الدين ص٨٩.

ويقول أرنست رينان: (من الممكن أن يضمحل ويتلاشى كل شيء نحبه وكل شيء نعده من ملاذ الحياة ونعيمها. ومن الممكن أن تبطل حرية استعمال العقل والعلم والصناعة، ولكن يستحيل أن ينمحي التدين أو يتلاشى بل سيبقى أبد الآبدين حجة ناطقة على بطلان المذهب المادي الذي يريد أن يحصر الفكر الإنساني في المضائق الدنيئة للحياة الأرضية [١]. وقد علق الأستاذ محمد فريد وجدي على كلمة (دين) بقوله: (نعم يستحيل أن تتلاشى فكرة التدين لأنها أرقى ميول النفس وأكرم عواطفها، ناهيك بميل يرفع رأس الإنسان، بل إن هذا الميل سيزداد... ففطرة التدين ستلاحق الإنسان ما دام ذا عقل يعقل به الجمال والقبح وستزداد هذه الفطرة على نسبة علو مداركه ونمو معارفه) [٢].

ويقول (أوجست سباتييه): (الدين باق وغير قابل للزوال وهو فضلاً عن عدم نضوب ينبوعه بتمادي الزمن نرى ذلك الينبوع يتزايد اتساعًا وعمقًا تحت المؤثر المزدوج من الفكر الفلسفي والتجارب الحيوية المؤلمة) [٣].

فالدين لم يمت ولن يموت وسيظل باقيًا وليس ثمة حجة على زواله قبل زوال الإنسان. ولذلك فالفكر الوضعي الذي أراد أن يوهمنا بأن الدين مرحلة من المراحل التي عفى عليها الزمن فكر قاصر وغير صحيح.

هذا إلى جانب أن صاحب المذهب الوضعي نفسه لم يستطع أن يتخلص من التدين فبرغم ادعائه بأن زوال الديانات وفناءها هو النهاية الحتمية للتقدم العلمي إلا أنه عاد متدينًا فدعى إلى ما أسماه بديانة الإنسانية، وجعل لها عبادة وطقوس وكهنة وهذا يدل على اضطرابه الفكري وإفلاسه العلمي وخطأ نظريته.

---

(١) الإسلام في عصر العلم جـ١ ص٢٥٢، راجع أيضًا: دائرة معارف القرن العشرين (المجلد الرابع) ص١١١ دار المعرفة -بيروت.

(٢) دائرة معارف القرن العشرين مجلد ٤ ص١١١.

(٣) الإسلام في عصر العلم جـ١ ص٢٥٣.

المبحث الثاني

حتمية التدين وضرورته وأهميته بالنسبة للفرد والمجتمع

أ- ضرورة التدين وأهميته بالنسبة للفرد:

وإذا كان التدين قديمًا قدم الإنسان، وخالدًا لن يزول قبل زوال الإنسان فإنه أيضًا جوهر كامن في جبلة الإنسان، وحقيقة أصيلة في طبيعته، وهذا ما يعني أنه ضروري وحتمي للإنسان لا يستطيع أن يستغني عنه أو يعيش بدونه.

ولذلك يسأل الفيلسوف (أوجست سباتييه) نفسه سؤالاً ويجيب عليه بقوله: لماذا أنا متدين؟ إني لم أحرك شفتي بهذا السؤال مرة إلا وأراني مسوقًا للإجابة عليه بهذا الجواب وهو: أنا متدين لأني لا أستطيع خلاف ذلك. لأن التدين لازم معنوي من لوازم ذاتي.

يقولون لي: ذلك أثر من آثار الوراثة أو التربية أو المزاج. فأقول لهم: قد اعترضت على نفسي كثيرًا بهذا الاعتراض نفسه. ولكني وجدته يقهقر المسألة ولا يحلها. وأن ضرورة التدين التي أشاهدها في حياتي الشخصية أشاهدها بأكثر قوة في الحياة الاجتماعية البشرية فهي ليست أقل تشبثًا مني بأهداب الدين [١].

والتدين ضروري -ولا سيما في أديان التوحيد- لتكميل القوة النظرية في الإنسان. فيه وحده يجد العقل ما يشبع نهمته، ومن دونه لا يحقق مطامحه العليا [٢].

لذلك يقول إسماعيل مظهر (ثبت لدينا أن الدين ضرورة من ضرورات الاعتقاد لم تخرج عن حكم كل ضرورة في أنها ذات قاعدة ما فضرورة

(١) المرجع السابق جـ١ ص٢٥٣.
(٢) الدين ص١٠٠.

التغذية ضرورة طبيعية لها آثارها، والتعاون ضرورة اجتماعية أنشأت للإنسان مدنيته وعمرانه، والاعتقاد ضرورة عقلية لها آثارها الخاصة بها) [١].

ويذكر أرنولد توينبي أن الدين في الحقيقة صفة ذاتية مميزة للطبيعة البشرية فهو الاستجابة الحتمية لتحدي غموض الطبيعة، هذا هو التحدي الذي يواجه الكائن البشري بسبب أنه يملك القدرة البشرية الفريدة: قدرة الوعي [٢].

ثم هو فوق ذلك عنصر ضروري لتكميل قوة الوجدان، فالعواطف النبيلة من الحب، والشوق، والشكر، والتواضع، والحياء، والأمل، وغيرها، إذا لم تجد ضالتها المنشودة في الأشياء، ولا في الناس، وإذا جفت ينابيعها في هذا العالم المتبدل المتبدد، وجدت في موضوع الدين مجالاً لا تدرك غايته، ومنهلاً لا ينفد معين.

وهو أيضًا عنصر ضروري لتكميل قوة الإرادة يمدها بأعظم البواعث والدوافع، ويدرعها بأكبر وسائل المقاومة لعوامل اليأس والقنوط [٣].

والتدين بعد ذلك حاجة نفسية [٤] مهيمنة لا يتمكن الإنسان من الحياة النفسية الراضية بدونه، وأما هؤلاء الذين يظنون أنهم قد حرروا أنفسهم من الدين فلم يفعلوا ذلك إلا في الظاهر فحسب، ولكنهم في قرارة أنفسهم معتقدون بخرافات وبغير خرافات كما يعتقد أي فرد آخر من الناس.

فلقد شعر الإنسان في الماضي كما نشعر نحن الآن، وكما سيشعر غالبًا رجال المستقبل بذلك العناد الكائن بين رغباته وشعوره من ناحية، وبين رغبات البيئة التي يعيش فيها ومطالبها من ناحية أخرى، وأعتقد بأنه من الممكن التغلب على ذلك العناد بين الرغبات، وآمن بوجود قوة مؤثرة في

(١) ملقى السبيل ص٣٩ نقلاً عن د/ يحيى هاشم، مداخل إلى العقيدة الإسلامية ص١٣٩.
(٢) تاريخ البشرية جـ١ ص١٩. (٣) الدين ص١٠٠.
(٤) راجع في هذا د/ محمود حب الله: الحياة الوجدانية والعقيدة الدينية ص٢٠٤-٢٠٦ الطبعة الأولى دار إحياء الكتب العربية عيسى الحلبي سنة ١٩٤٨م.

هذين العالمين المتعاندين وبأن الاتصال بها يساعد على التغلب على ذلك العناد، ويساعد على النجاح والفلاح في الحياة.

فالعقيدة الدينية هي التي تعطي الإنسان التبرير لما يواجهه في حياته من صراع دائم مع الطبيعة من حوله ومع الأفراد الذين يضمهم مجتمعه، ولذا لم تكن العقيدة الدينية فردية وحسب بل إن النشاط البشري كله يملى على البشر ضرورة العقيدة إملاء [١].

فالإنسان لم تطمئن نفسه ولم يرض قلبه في أي مرحلة من مراحل حياته إلا بعد أن آمن بتلك القوة العليا واعتقد أنه وصل إليها ثم اتصل بها بأي نوع من أنواع الاتصال ثم خضع لها ودان لها بالطاعة.

فالعقيدة الدينية حاجة نفسية مسيطرة على عقل المرء وشعوره ووجدانه فهي مشبعة لميوله الطبيعية -الغريزية والعقلية، وهي حاجة تطلب ولا بد أن تشبع، وإذا لم توجد اخترعت ثم تحكمت.

ولكن ينبغي أن نلاحظ -كما يقول د/ محمود حب الله- أن كونها حاجة نفسية لا ينافي أنها أو أن بعضها قد يكون وحيًا إلهيًّا أو أنها حق. فإن الوحي الإلهي لم يجئ إلا ليساعد الإنسان على قضاء حاجاته النفسية ليتمكن من النهوض إلى ما قدر له من كمال الإنسان. ولو لم يكن للعقائد الإلهية أساس في نفس الإنسان لعز تبليغها إليه، ولعز عليه هضمها والإيمان بها. فهى حاجة، وقد تكون مع ذلك من وحي الله.

وإن كانت حاجة نفسية كانت ذا سلطان قوي على النفوس فإذا ما حلت في قلب المرء غزت كل جوارحه، وتملكت مشاعره، وأصبحت موجهه الوحيد فلا يحس غيرها، ولا يرى حياة بدونها، فهي تدفعه إلى العمل والتضحية [٢].

---

(١) أحمد محمود البربري: الدين بين الفرد والمجتمع ص٤٧ دار مصر للطباعة سنة ١٩٧٢م.
(٢) الحياة الوجدانية والعقيدة الدينية ص٢٠٥، ٢٠٦.

كما أنها تبدد الأحزان، وتسوق العزاء، وتبتعث الآمال، وتحقق السكينة، وتيسر مشكلات الحياة، وتبعث في النفوس الثقة والاطمئنان ولما كان القلق النفسي يدمر الحياة، ويمزق النفوس، وبجلب الأمراض النفسية والجسمية، فإن علاجه الوحيد هو: بث الاطمئنان في النفوس وهو لا يتأتى إلا عن طريق التدين والإيمان بالله [١].

وإلى هذا أشار عالم النفس الشهير (هنري لنك) الذي أجرى هو ومعاونوه عشرات الآلاف من التجارب النفسية على نحو عشرة آلاف شخص تلبية لطلب إحدى المؤسسات وقد خرج من تجاربه بالنتيجة التالية: (سجلت تقريرًا شخصيًا شاملاً لكل فرد منهم، وهنا بدأ إدراكي لأهمية العقيدة الدينية بالنسبة لحياة الإنسان، ووجدت من نفسي استعدادًا لمضاهاة تجاربي السابقة على مرضاي بالنتائج الباهرة التي تمت بها تلك الاختبارات العظيمة، التي توليت الإشراف عليها وقد استخلصت من هذه الاختبارات نتيجة هامة ولو أنها لم تنشر في التقرير النهائي، وهذه النتيجة هي: أن كل من يعتنق دينًا أو يتردد على دار للعبادة يتمتع بشخصية أقوى وأفضل ممن لا دين له، أو لا يزاول أي عبادة [٢].

هذا إلى جانب أن الدين وخاصة الدين السماوي -نافع للشخص في رياضة القوى النفسانية بمنعها عن متابعة الشهوة وعن التخيلات والتوهمات والإحساسات والأفاعيل المثيرة للشهوة والغضب، المانعة للنفس الناطقة عن إدراك الحقائق لتهتدي إلى الصواب فتسير في طريق السعادة، وفي إدامة النظر في الأمور العالمية لتصل بذلك إلى العلم بموجدها فتصفو نفسه عن الغواشي المادية فتصلح ويصلح، وفي تذكر إنذارات الشارع ووعده للمحسن ووعيده

(١) الأستاذ علي عبد العظيم: إن الدين عند الله الإسلام ص٣٨ (مجمع البحوث الإسلامية) سنة ١٩٨١م.

(٢) هنري لنك: العودة إلى الإيمان ص٢٦ ترجمة ثروت عكاشة. ط/ دار المعارف سنة ١٩٥٩م.

للمسيء المستلزم لإقامة العدل [١].

وقد دلل (تالكوت بارسونز) [٢] على ضرورة التدين للإنسان وحاجته النفسية إليه من خلال دراسته لطبيعة وخصائص الوجود الإنساني حيث يرى أن الطبيعة البشرية هي التي تجعل أفراد البشر في حاجة إلى سند متعالي أبعد من الواقع المادي.

وأول خصائص هذا الوجود هو ما أطلق عليه -بارسونز- حالة الإمكان التي يحياها الإنسان، بمعنى أن البشر يعيشون في حالة القلق غير قادرين على تحقيق الأمن والرخاء لأنفسهم دائمًا، بالإضافة إلى أنه مهما بلغت درجة الكمال والإتقان والاحتياط في خطط الإنسان ومشروعاته، وفي تنفيذ هذه الخطط فإنها لا تزال عرضة لخيبة الأمل والفشل، هذا الفشل قد يجلب معه الضرر البالغ لأفراد البشر وحتى في المجتمعات التي بلغت درجة عالية من التقدم.

ثاني هذه الخصائص هي صفة العجز ذلك أن قدرة الإنسان المحدودة على الضبط والتحكم في ظروف حياته وخاصة عندما يواجه الصراع بين مطالبه ومطالب بيئته، هذا العجز وهذا الفشل في تحقيق ما يتمناه الإنسان يفسد عليه إحساسه بالرضا والسعادة.

وثالث هذه الصفات هي صفة الندرة. وبيان ذلك أن الإنسان يجب أن يعيش في مجتمع وهذه الحياة الاجتماعية تتضمن تقسيمًا للعمل وتقسيمًا للانتاج، وتتطلب تفاوتًا بين أفراد المجتمع، وتجعل بعضهم في مرتبة أعلى من الآخرين، أو في حالة خضوع لغيرهم من أفراد المجتمع، فضلاً عن إمكان تعرض المجتمعات لظروف قاسية في الحياة، ولحالات من الندرة والقحط

---

(١) التحقيق التام في علم الكلام ص١٥٥.

(٢) عالم اجتماعي أمريكي المولد والنشأة. ولد عام ١٩٠٢م (لمزيد من المعلومات عنه راجع: نظرية علم الاجتماع طبيعتها وتطورها ص٣٦٢، د/ محمد علي محمد: تاريخ علم الاجتماع ص٤٦٦).

تستلزم إعادة توزيع السلع. وهذا يعني بدوره إحساس الفرد بالحرمان والإحباط والمعاناة والقهر.

هذه الصفات المميزة للوجود الإنساني، والمتوارثة في نفس الوقت -كما يرى بارسونز- تضع الإنسان وجهًا لوجه أمام مواقف صعبة لا تجدي وسائل الدفاع العادية، والمألوفة في التغلب عليها، واجتيازها وإعادة تكيف الفرد، وقد تصل به إلى طريق مسدود. وعند هذه المرحلة يتساءل الإنسان عن ما عبر عنه بمشكلة المعنى: لماذا الموت؟ لماذا المرض؟ لماذا الفقر؟ لماذا الغنى؟ لماذا المعاناة؟ لماذا الشر في العالم؟ ولماذا يصيبني دون غيري؟ هذه الأسئلة تحتاج إلى إجابات شافية وإذا لم توجد هذه الإجابات فإن قواعد الأخلاق والمعايير والأهداف تنهار وتتقوص، والدين وحده هو الذي يجعل الحياة محتملة، ومن ثم يتغلب الإنسان على هذه المصاعب ويتقبلها.

الدين إذًا هو الذي يمنح الفرد القوة على مواجهة الأحداث والصدمات بقوة تفوق قوتها وهو الذي يقوي إرادة الفرد ويجعله يتحلى بالصبر ليواصل الكفاح [١].

وكما أن العقيدة الدينية ضرورة نفسية ملحة فهي أيضًا ضرورة عملية إذ أن العقائد الدينية تقدم نفسها لنا على الأقل -كما يقول وليم جيمس- كفروض يمكن أن تكون صحيحة، وهي من الفروض المهمة لنا التي لا يمكن أن نتجاهلها والتي تتصل اتصالاً وثيقًا بحياتنا العملية والشك في المسائل العملية محال.

وعلى الرغم من أن الحياد صعب المراس من ناحية نفسية فإنه غير ممكن التحقيق من ناحية عملية وذلك لأن الاعتقاد والشك كما يقول علماء النفس

---

(١) راجع د/ سهام محمود العراقي: الاتجاه الديني المعاصر لدى الشباب ص٥٢/٥٣ الطبعة الأولى. مكتبة المعارف الحديثة سنة ١٩٨٣.

من الأمور الحيوية التي تطلب منا عملاً، فطريقنا الوحيد للشك أو لرفض الاعتقاد في وجود شيء ما مثلاً هو أن نستمر في حركاتنا وتصرفاتنا بالنسبة له كأنه غير موجود، فإذا رفضت أن أعتقد أن جو الغرفة بارد مثلاً فسأترك النوافذ مفتحة وسوف لا أوقد فيها نارًا، كما كنت أفعل لو اعتقدت أن جوها لا يزال دافئًا، وإذا شككت في أنك من الأشخاص الذين يوثق بهم فسأكتم عنك أسراري كما كنت أفعل حين أعتقد أنك لست موضعًا للثقة. وإذا رفضت أن أعتقد أن لهذا العالم إلهًا فليس من ذلك مظهر إلا الامتناع عن التصرف نحوه على هذا الأساس، وليس لهذا من معنى ثانيًا إلا التصرف بالنسبة للأمور الخطيرة المهمة كأنها ليست كذلك أو التصرف على نحو غير ديني كأننا ننكر ذلك فعلاً [١].

فالحياد التام أو الشك في كل الأمور الحيوية للإنسان ومنها العقائد الدينية محال من ناحية عملية.

فالتدين ضرورة عملية وضرورة نفسية ولذا اعتقد الإنسان، وكان عليه أن يعتقد ولو لم يصله إيحاء، ولو لم تبرز العقيدة نفسها إليه، أو تبرزها إليه قوة أخرى لبحث عنها في كل مكان [٢].

إضافة إلى ما سبق من أدلة على ضرورة الدين وأهميته بالنسبة للإنسان فإن الدين -وبخاصة الدين السماوي- هو مصدر القيم الخلقية ومصدر المثل العليا، وقواعد السلوك الأخلاقي. حيث يقوم بتزويد الفرد بالقيم والمبادئ الأخلاقية القائمة على الإيمان بالله عز وجل.

وحين تبنى الأخلاق على الدين، وحين يكون الرقيب على أفعال الفرد هو الضمير الحي اليقظ المؤمن بالله يصبح الإلزام الخلقي والوازع الذاتي أقوى

---

(١) وليم جيمس: إرادة الاعتقاد ص١٣٠ ترجمة د/ محمود حب الله. الطبعة الأولى. مطبعة عيسى الحلبي.

(٢) الحياة الوجدانية والعقيدة الدينية ص٢٠٧، ٢٠٨.

وتصبح الرقابة شاملة لكل تصرفات الفرد في السر والعلن: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر :١٩] ، وهذا يعني اتساع مفهوم الأخلاق ليشمل أفعال الإنسان وجميع تصرفاته وأفكاره ومشاعره. إن رقابة الإنسان على نفسه النابعة من إيمانه بالله أقوى من رقابة الدولة ومن رقابة المجتمع، ويصبح إتيانه للأفعال الأخلاقية خالصًا من كل منفعة، أو هوى مبتغيًا في ذلك رضوان الله. وهذا ما يدفعه إلى مزيد من الخير ومزيد من التضحية [١].

فالإيمان قوة عاصمة عن الدنايا، دافعة إلى المكرمات، ومن ثم فإن الله عندما يدعو عباده إلى خير أو ينفرهم من شر يجعل ذلك مقتضى الإيمان المستقر في قلوبهم. وما أكثر ما يقول في كتابه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ثم يذكر - بعد - ما يكلفهم به ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة :١١٩] مثلاً. والإيمان القوي يلد الخلق القوي حتمًا، وانهيار الأخلاق مرده إلى ضعف الإيمان وعدم كماله [٢].

يقول جمال الدين الأفغاني: (مما لا شك فيه أن الدين هو السبب الفرد لسعادة الإنسان غير أنه لو قام الدين على قواعد الأمر الإلهي ولم تخالطه أباطيل من يزعمونه ولا يعرفونه، فلا ريب أن يكون سببًا في السعادة التامة والنعيم الكامل بل ويفيض على الإنسان الكمال العقلي والنفسي مما يجعله يظفر بسعادة الدارين) [٣].

وهكذا نرى أن الدين ضروري وحتمي للإنسان لأنه يعبر عن حاجات النفس الإنسانية في مختلف ملكاتها ومظاهرها حتى إنه كما صح أن يعرف الإنسان بأنه (حيوان مفكر) أو بأنه (حيوان مدني بطبعه) يسوغ لنا كذلك أن نعرفه -كما يقول د/ دراز- بأنه (حيوان متدين بفطرته) [٤].

---

(١) الاتجاه الديني المعاصر لدى الشباب ص٥٣، ٥٤.

(٢) راجع الشيخ محمد الغزالي. خلق المسلم ص٩ ط الثامنة سنة ١٩٧٤.

(٣) جمال الدين الأفغاني: الرد على الدهريين ص٨٣ ترجمة الشيخ محمد عبده، محمد فؤاد منقارة الطرابلس. سنة ١٩٤٧م.

(٤) الدين ص١٠٠.

فالعقيدة الدينية من أي النواحي أتيتها وجدتها حتمية وضرورية ولا يخلو عنها الإنسان في زمان أو مكان. فهي الغذاء الوافي لقوى النفس المختلفة، والمداد الخالد لحيويتها.

وإن من أكبر الأدلة وأقواها على حتمية التدين وضرورته أن هؤلاء الذين يحاولون التخلص منه والانفكاك عنه قد باءت كل محاولاتهم بالفشل والبوار.

وبيننا الآن شعوب تحاول أن تتملص من العقيدة بكل ما أوتيت من قوة الإلحاد التي خلفها عصر النهضة والعصر الحديث، ومع ذلك فهي لا تستطيع من التدين فكافكا ولا من سلطانه انفلاتا [١].

وحسبنا أن نذكر نتيجة التقرير الذي أورده العالم النفسي -هنري لنك- بعد إجراء آلاف التجارب حيث قال فيه: (إنه لا يوجد بديل كامل يحل محل تلك القوة الهائلة التي يخلقها الإيمان بالخالق وبناموسه الخلقي الإلهي في قلوب الناس) [٢].

ب- ضرورة التدين وأهميته بالنسبة للمجتمع:

كما أن الدين لازم للإنسان ونافع له، فإنه أيضًا مفيد للمجتمع الإنساني وضروري لابد منه. حيث تبرز أهميته في تكوين الجماعات البشرية، وتنظيمها، وإصلاحها، والحفاظ على كيانها وتماسكها، واستقرارها.

وكما أن الدين وثيق الاتصال بكثير من غرائز الإنسان النفسية ومشبع لكثير من ميوله الفطرية، فإنه أيضًا مرتبط أشد الارتباط بتكوين المجتمعات وببقائها حيث يحدد الواجبات والحقوق الخاصة بالأفراد والمجتمعات، وينظم العلاقات والروابط الاجتماعية وفق القوانين الأخلاقية التي حددها ورسمها.

---

(١) المراجع السابق نفس الصفحة د/ محمود مزروعة نشأة الدين الوضعي (بحث في كلية أصول الدين بالمنوفية (العدد التاسع) ص ١٤).

(٢) هنري لنك: العودة إلى الإيمان ص١٢٠ ترجمة د/ ثروت عكاشة ط دار المعارف سنة ١٩٥٩م.

فلم تبن الجماعات الإنسانية إلا على أساس الدين فهو الذي يجعل التضحية الفردية ذات مغزى، ويدفع إليها أحيانًا، وهو الذي يجعل المرء يرعى القوانين والعادات، وهو الذي يحفظ روابط الأسرة، وهو الذي يجعل للمجتمع قدسيته، ويطلب من الأفراد أن تراعي حرمته.

ولولا العقائد الدينية -كما يقول د/ محمود حب الله- ما تكونت هذه الدول والممالك التي نراها الآن، ولا يزال الدين على الرغم من كل ما يقال من تحرر بعض الأمم عنه من العوامل القوية التي تربط شعور الناس بعضهم ببعض مهما تباعدت أوطانهم وتباينت ديارهم [١].

والتاريخ يحدثنا بأن الدين كان من أكبر العوامل التي ساعدت على بقاء المجتمعات ورقيها وعلى السمو بحياة كل من الأفراد والجماعات البشرية، بل وسيظل محتفظًا بتلك المكانة ما دام الإنسان وذلك لارتباطه الوثيق بكثير من ميول الإنسان وغرائزه [٢] -كما سبق أن بينا-.

وبقدر شيوع العقيدة بين الأفراد وعمومها يكون مقدار ثبات الجماعة واستقرارها، ومقدار ما فيها من وحدة وانسجام، فليس على وجه الأرض قوة تكافئ قوة التدين أو تدانيها في كفالة احترام القانون، وضمان تماسك المجتمع، واستقرار نظامه، والتئام أسباب الراحة والطمأنينة فيه. والسر في ذلك أن الإنسان يمتاز عن سائر الكائنات الحية بأن حركاته وتصرفاته الاختيارية يتولى قيادتها شيء لا يقع عليه سمعه ولا بصره، ولا يوضع في يده ولا عنقه، ولا يجري في دمه، ولا يسري في عضلاته وأعصابه وإنما هو معنى إنساني روحاني اسمه الفكر والعقيدة.

إن الإنسان يساق من باطنه لا من ظاهره، وليست قوانين الجماعات ولا

---

(١) الحياة الوجدانية ص١٩٠، ١٩١.

(٢) المرجع السابق ص٨٩.

سلطان الحكومات بكافيين وحدهما لإقامة مجتمع فاضل تحترم فيه الحقوق، وتؤدى فيه الواجبات على وجهها الكامل، فإن الذي يؤدي واجبه رهبة من السوط، أو السجن، أو العقوبة المالية، لا يلبث أن يهمله متى اطمأن إلى أنه سيفلت من طائلة القانون.

هذا فضلاً عن أن القانون لا يعاقب إلا على ما يظهر، ويؤيده الواقع، وكثيرون من المجرمين يرتكبون جرائمهم ويخدعون رجال الأمن ورجال القانون، ويعيثون في الأرض فسادًا. ثم يفلتون من العقاب، وكثيرون يسترون جرائمهم بالإرهاب، أو بالرشاوي فلا يشهد عليهم أحد بهذه الجرائم فإنهم يخشون شرهم، أو يرجون بذلهم، ولكن الله المطلع على الضمائر لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء [١] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران :٥] ، ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس :٦١] .

والقانون لا يعنى كذلك بالنية ولا يسأل الإنسان عن نياته التي يضمرها في أعماق قلبه وإنما يعنى بالأعمال الخارجية وحدها. والدين بخلاف ذلك حيث يثيب ويعاقب على النية والقصد. كما أن القانون لا يعاقب على كثير من الأفعال مثل الكذب والرياء والحسد، وخلف الوعد وغير ذلك من الأعمال التي ينهى عنها الدين ويحذر من ارتكابها.

هذا فضلاً عن أن مواد القانون لا تخلو من الظلم أو القصور أو الانحياز لطائفة دون أخرى.

فالقانون لا يغني عن الدين ولا يستطيع أن يحل محل الدين في توجيه

---

(١) إن الدين عند الله الإسلام ص٤٦.

الأفراد وإقامة المجتمعات على أسس فاضلة.

وكذا العلم لا يصلح لأن يقوم بدور الدين ويحل محله في تقويم الخلق وتهذيب النفس. ويخطئ من يظن أن في نشر العلوم والثقافات وحدها ضمانًا للسلام والرخاء وعوضًا عن التربية والتهذيب الديني والخلقي.

ذلك أن العلم سلاح ذو حدين: يصلح للهدم والتدمير، كما يصلح للبناء والتعمير، ولابد في حسن استخدامه من رقيب أخلاقي يوجهه لخير الإنسانية وعمارة الأرض، لا إلى نشر الشر والفساد. ذلكم الرقيب هو العقيدة والإيمان أي الإيمان بذات علوية رقيبة على السرائر، يستمد القانون سلطانه الأدبي من أمرها ونهيها، وتلتهب المشاعر بالحياء منها، أو بمحبتها، أو بخشيتها.

من أجل ذلك كان التدين خير ضمان لقيام التعامل بين الناس على قواعد العدالة والنصفة وكان لذلك ضرورة اجتماعية [١].

يقر بضرورة الدين، ولزومه، وأهميته للمجتمعات الإنسانية زعماء السياسة، وقواد الحرب في تلك الدول التي يقولون عنها إنها أسست نهضتها في العصر الحاضر على غير الدين.

كما يقر بذلك أيضًا العلماء الذين لهم باع طويل في مجال الأبحاث العلمية.

وحسبنا أن نذكر هنا ما قاله المستر كولج الرئيس الأسبق للولايات المتحدة الأمريكية في إحدى خطبه: (إن البلاد في حاجة إلى التدين أكثر مما هي عليه الآن، وإني لا أتصور دواء أنجح وأكثر تأثيرًا من الدين في إزالة المساوئ والشرور التي تلون بها شعبنا، فليس في الدنيا نظام تربية أو نظام حكومة غير معرض للزوال، كما أنه ليس هناك جزاء أو عقاب لم يفقد تأثيره فيما بعد إلا ما جاء عن طريق الصلاح والتضحية، وأساس الدين النصيحة، فلا

(١) الدين ص١٠٢.

سبيل إلى دوام هذه الحضارة المضيئة ما دمنا محرومين من الإيمان).

ويقول الدكتور ولسن -أحد رؤساء الولايات المتحدة الأمريكية الأسبقين- (وخلاصة المسألة كلها أن حضارتنا إن لم تنقذ بالمعنويات فلن نستطيع المثابرة على البقاء بماديتها، وأنها لا يمكن أن تنجو إلا إذا سرى الروح الديني في جميع مسامها، فتحررت وسعدت بما ولد فيها هذا الروح من الحركات، ذلك الأمر الذي يجب أن تتنافس فيه معابدنا، ومنظماتنا السياسية، وأصحاب رءوس الأموال، وكل فرد خائف من الله محب لبلده) [١].

وقد أعلن المارشال مونتجومري -القائد الذي غير مجرى الحرب العالمية الثانية- في خطبته أمام الجيش الثامن يوم ٤ مارس ١٩٥١م: (إن أهم عوامل الانتصار في الحرب هو العامل الأخلاقي، ولا يمكن لقائد أن يدفع جنوده إلى بذل أقصى جهودهم في العمل إلا إذا كانت ضمائرهم مرتاحة إلى ما يعملونه، ويقيني أن الجيش إذا سار على غير مرضاة الله سار على غير هدى.

إن خطر الانحطاط الخلقي في أفراد الجيش أعظم من خطر العدو، ولذلك لا نستطيع أن ننتصر في معركة إلا إذا انتصرنا على أنفسنا قبل كل شيء) [٢].

أما عن شهادات العلماء الأوربيين في هذا المجال الخاص بضرورة التدين للمجتمعات البشرية وعدم الاستغناء عنه بدعوى العلم فحسبنا أن نذكر قول (روبرت ملكان) -وهو من مشاهير علماء الطبيعة بأمريكا وهو الذى وضع بعض نظريات الذرة واكتشف البروتونات والإلكترونات ونال جائزة نوبل- في مؤلفاته المختلفة: (أهم أمر في الحياة هو الإيمان بحقيقة المعنويات، وقيمة الأخلاق، وكان زوال هذا الإيمان سببًا للحرب العامة. إذا لم نجتهد الآن لاكتسابه أو لتقويته فلن تبقى للعلم قيمة ويصير العلم نكبة على البشرية

(١) أحمد عزت باشا: الدين والعلم ص١٧٣، ١٧٤ ترجمة حمزة طاهر. مراجعة د/ عبد الوهاب عزام. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٥٠م.

(٢) الصحف المصرية ٥ مارس سنة ١٩٥١ نقلاً عن الدين ص١٠٤.

على حين يكون العلم تحت حكم الدين مفتاح الرقي وأمل المستقبل).

من ذلك أيضًا قول (شارلز، آ. ألوود) رئيس جمعية الاجتماعيين بأمريكا (العلم بلا دين عدم) وقوله: (إذا كان العلم مفيدًا للإنسان ثقافيًا واجتماعيًا فلن يقدر على ذلك دون معاونة الدين.. فالعلم في حاجة إلى الدين لكي يستعمل الناس حقائقه استعمالاً صحيحًا. فالدين خير الوسائل لحمل الناس على الحركة على هذه الطريقة) [١].

ويقول ابرفنج وليام نوبلوتش -أستاذ العلوم الطبيعية في جامعة ميشجيان- ولكن العلماء ليسوا جميعًا ممن يعتقدون في قدرة العلوم على كل شيء حتى تستطيع أن تجد تفسيرًا لكل شيء فالعلوم لا تستطيع أن تحلل الحق، والجمال، والسعادة، كما أنها عاجزة عن أن تجد تفسيرًا لظاهرة الحياة أو وسيلة لإدراك غايتها..) [٢].

ويقرر السير جون إكلس -في توطئته للكتاب القيم (العلم في منظوره الجديد) لأستاذين معروفين في أمريكا الشمالية أحدهما متخصص في فلسفة العلم وهو (روبرت أغروس). والآخر في الفيزياء النظرية وهو (جورج ستانسيو) إننا جميعًا نحس بالنفور من أيديولوجية لا ترى الوجود وهي تغرس في النفوس اليأس الدائم أما جاذبية النظرة الجيدة - القائمة على الإيمان بالله- تستبدل بهذه القسوة الفظيعة غائية الوجود، وخالق الكون، والجمال والثروات الروحية وكرامة الإنسان) [٣].

وقد أورد هذان المؤلفان في نتيجة الدراسة التي قاما بها أقوال كثير من

---

(١) الدين والعلم ص١٧٤.

(٢) نخبة من العلماء الأمريكيين: الله يتجلى في عصر العلم ص٥٢ ترجمة د/ الدمرداش عبد المجيد سرحان. الطبعة الثالثة. مؤسسة الحلبي.

(٣) روبرت أغروس، جورج ستانسيو: العلم في منظوره الجديد ص١٣ ترجمة د./ كمال خلايلي (عالم المعرفة).

العلماء الذين يؤكدون على أهمية التدين بالنسبة للإنسان والمجتمع وعلى قصور العلم عن إدراك جوانب عديدة في الحياة الإنسانية.

من ذلك قول (أيرون شرود نغر) - ١٩٦١ - ١٩٨٧ عالم الفيزياء النمساوي الذي منح جائزة نوبل هو وبول ديراك سنة ١٩٣٣م- (إن الصورة التي يرسمها العلم للعالم الحقيقي حولي صورة ناقصة جدًّا، صحيح أنه يقدم حشدًا ضخمًا من المعلومات الواقعية ولكنه يسكت سكوتًا فاضحًا عن كل ما هو قريب فعلاً إلى قلوبنا. كل ما يهمنا حقًّا إنه لا يستطيع أن يقول لنا كلمة واحدة عن الحمرة والزرقة، عن المرارة والحلاوة، عن الألم الجسدي، واللذة الجسدية، ولا هو يعرف شيئًا عن الجمال والقبح، عن الخير والشر، أو عن الله والأزلية، صحيح أن العلم يدعي أحيانًا أنه يجيب عن أسئلة في هذه المجالات إلا أن الأجوبة هي في الأغلب على قدر من السخف لا نميل معه إلى أخذها مأخذ الجد) [١].

ثم توقع روبرت أغروس، وجورج ستانسيو في نهاية دراستهما بأن المستقبل بالنسبة للدراسات العلمية والإنسانية هو تخطيها للجانب المادي إلى جوانب أخرى، ويؤكدا أنه فيما يتعلق بالمستقبل فلا تزال هناك أشياء كثيرة عن المادة ينبغي اكتشافها، ولكن المادية ذاتها تبدو كأنها أصيبت بالإرهاق. صحيح أنها تستطيع أن تبقى، ولكنها لن تبقى إلا على حساب تحولها لتصبح تدريجيًّا أكثر ضيقًا، وأشد تعصبًا، وأكثر ظلامية، أما النظرة العلمية الجديدة فينتظر لها مستقبل مرموق يبشر بتحرير كل حقل من حقول المعرفة من النظرة المادية الجافة وإعطاؤها منظورًا جديدًا ونورًا جديدًا ييسر لقيام نهضة حقيقية.

كما أن المستقبل في البلاد الأوربية يوحي بالعودة بالثقافة الأوربية إلى

(١) المرجع السابق ص١٣٤.

الإيمان بوجود الله الواحد، وبإعادة التأكيد على الجانب الروحي من طبيعة الإنسان [١].

وهناك دراسات كثيرة تؤكد على هذا الجانب [٢].

وهكذا يرى كثير من العلماء أن الدين ضروري لابد منه في إصلاح البشرية. كما أنه هو الضمان القوي لتماسك المجتمع واستقراره فليست مهمة الدين فقط أنه الباعث القوي لتهذيب السلوك وتصحيح المعاملة. وتطبيق قواعد العدل، ومقاومة الفوضى والفساد. بل إن له وظيفة إيجابية أعمق أثرًا في كيان الجماعة، ذلك أنه يربط بين قلوب معتنقيه برباط من المحبة والتراحم لا يعدله رباط آخر من الجنس أو اللغة، أو الجوار أو المصالح المشتركة [٣].

فالدين يعتبر أعمق الوسائل التي ترمي إلى تكامل الجماعة. وهو سبب قوة المجتمع. كما كان سبب قوة الفرد حيث يتيح الفرصة لمشاعر الحب، والتعاون، والبذل، والعطاء، والمشاركة الوجدانية تجاه الآخرين وكلها مشاعر ضرورية للحد من الصراع بين الأفراد والتكالب على المنفعة الذاتية، وتخفيف حدة الأنانية والأثرة، وتغليب للمصلحة العامة على المصلحة الشخصية. وغير ذلك من الأمور التي لا غنى عنها لتماسك المجتمع واستقراره [٤].

وجملة القول أن الأديان تحل من الجماعات محل القلب من الجسد وأن الذي يؤرخ الديانات كأنما يؤرخ حياة الشعوب [٥].

---

(١) المرجع السابق ص١٤٦-١٤٧.

(٢) راجع أيضًا: الله يتجلى في عصر العلم، كريس موريسون: العلم يدعو للإيمان (ترجمة محمود صالح الفلكي) الطبعة السابعة مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٧٨م.

(٣) الدين ص١٠٤.

(٤) الاتجاه الديني المعاصر لدى الشباب ص٥٥.

(٥) الدين ص١٠٥.